تَكْتبون ما تريدون، ونَنْشر ما نريد!

ميشيل كيلو

سمعتُ هذا القول لأوّل مرّة في جريدة **البعث**. كنتُ قد كتبتُ مقالةً حول دور ـ أوْ ما كنتُ أتوهّم أنّه تقصير ـ السوفيات في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، أُعزِّز به أدلّتي على «تقصيرهم» في الحرب العربيّة/الإسرائيليّة. فرفض رئيسُ تحرير الجريدة نشرَ المقالة، وقال ردّاً على تذكيره بحقّي في أن أقول رأيي: «أنتم أحرار، تكتبون ما تريدون. ونحن أحرار، نَنْشر ما نريد!»

◆ ◆ ◆

ليست هذه هي الطريقةَ الوحيدةَ التي يَسْتطيع الكاتبُ الرسميُّ السوريُّ أن يمارسَ بها حريّتَه:

ـ فهو يستطيع أن يكون حرّاً أيضًا في تبنّي أفكارٍ ليست له، يُدافع عنها من دون أن يكون مقتنعًا بها ومن دون أن يطالبه أحدٌ بذلك.

ـ ويستطيع الصمتَ عن أفكاره الحقيقيّة والخاصّة، بل والتنكُّرَ لها بمناسبةٍ وبلا مناسبة.

ـ كما يَقْدر أن يكون حرّاً في الدفاع عن فكرتيْن متناقضتيْن يَعْرف أنّهما كذلك، «وافَقَ» على إحداهما لأنّه سمعها من جهةٍ نافذةٍ ما، ثم «وافَقَ» على الأخرى، المعاكسةِ لها، لأنّها صدرتْ عن جهةٍ أعلى من الأولى.

ـ وهو حرٌّ كذلك في أن يَكْذب على نفسه، تمهيدًا للكذب على قرّائه، كأنْ يرى وضعًا تعاف نفسُه عيوبَه، أو يتعرّفَ على فاسدٍ أو مرتشٍ ويَشْعر بالتقزّز حياله، لكنّه يكتب عن هذا كلّه بلغة متزلّفة مدائحيّة تَجْعل الوضعَ مثاليّاً والشخصَ نبيلاً، قافزًا عن الحقائق إلى عالمٍ وهميٍّ هو نقيضُها، يَعْتبره هو الواقعَ، فيَغْرفُ منه حالاتٍ وقصصًا يستعين بها في تزوير الحقيقة.

◆ ◆ ◆

هذه الحريّات كثيرًا ما أَوْقعتْ ممارسيها في مطبّات مُحرجة. فقد امتَدَحَ هؤلاء ردحًا من الزمن رئيسَ مصر الراحل أنور السادات، حليفَ النظام السوريّ الإستراتيجيّ بين عامَيْ ١٩٧٠ و١٩٧٥ وأثناء حرب تشرين، وأَطْنبوا في مديحهم، وأَضفَوْا عليه أشكالاً من المبالغة والتهويل يَصْعب على العقل قبولُها، وأثارت في حينه ضَحِكَ مَنْ كانوا يقرأونها لأنّها جعلتْ منه مثالاً حيّاً للوطنيّة والقوميّة والتحرير. وفجأةً، بدأ التفكُّكُ يدبّ في العلاقات السوريّة ـ المصريّة. وما إنْ صدرتْ أولُ إشارةِ هجومٍ على السادات، حتى تحوّل إلى خائنٍ أَشِرٍ ومجرمٍ ذميمٍ، لم يكن يومًا وطنيّاً أو قوميّاً أو مؤْمنًا بالتحرير.

وقد حدث مثلُ ذلك عام ١٩٧٨: فقد انقلب صدّام حسين من عدوّ للعرب يَعْمل مع الصهاينة، إلى ركن من أركان الصمود والتحرّر العربيّ، قبل أن يَرْجع من جديد عدوّاً للأمّة العربيّة ومسانداً للنضال الصهيونيّ ضدّ سوريّة ـ قلعةِ الصمود والتصدّي.

ليس بين صفات الكاتب الرسميّ عندنا أن يكون صاحبَ رأي، بل العكسُ هو الصحيح: يجب أن يكون كالمرآةِ التي تَعْكس ما يَحْدث، بغضّ النظر عن طبيعته. ليس مطلوبًا منه أيضًا أن يكون صاحبَ دورٍ في الأحداث العامة، التي يجب أن يتعامل معها ببرّانيّة تامّة، لأنّها في الواقع برانيّةٌ بالنسبة إليه، ولا تعنيه. لذلك، لا يسأله أحدٌ عن رأيه فيها أو موقفه منها. كما تحظَّر عليه المشاركةُ في صنعها، ناهيك عن اتّخاذ موقفٍ نقديٍّ أو متحفّظٍ حيالها؛ فهذا ليس من وظائفه.

ألا يفسِّر هذا ظاهرةَ تردّي مستوى الكتابة عامةً، والسياسيّة خاصةً، وهروبَ القسم الأكبر من كتّاب الصحافة إلى السياسات الدوليّة وإلى الأدب والتحقيقات والنقد، حيث يوجد هامشُ حريّة، ويُمْكن للمرء أن يرتكب أخطاء صغيرةً لا يحاسبه عليها أحد، خلافًا لحالِ الأقسام الأخرى حيث يتربَّصُ به ويَرْصد حركاتِه وسكناتِه خلقٌ كثيرٌ، بينهم زملاءُ عمل، والسيِّدُ مُديرُه العامّ ـ حارسُ النظام الأوّل في وسيلة الإعلام، الذي لا يتردّد في معاقبته والوشايةِ به، بل وتسليمِه إلى «الجهات المختصّة،» بحسب جسامة الخطإ المنسوب إليه، صحيحًا كان أو كاذبًا؟!

◆ ◆ ◆

ومع أنّ هذه الأجواء لم تتغيّر، لأنّ النظام حافَظَ على بناه خلال العامَيْن الماضيَيْن، فإنّ ثمة تحسُّنًا محدودًا تُمْكن ملاحظتُه: فاليوم، ليس وراء كلِّ غلطة، مهما كان نوعُها، مؤامرةٌ أميركيّةٌ؛ وليس خَلْفَ كلِّ صورة لا تُعْجب صاحبَها قصدٌ صهيونيٌّ؛ ولم تعد القيادة السياسيّة هدفَ أيِّ كلمة في غير محلّها.

وفي المقابل، يتركّز الانتباهُ على مراسلي وسائل الإعلام الأجنبيّة، الذين يَخْضعون لرقابة مشدّدة، ويتمّ استدعاؤهم إلى محادثات ومراجعات وجلساتِ تعارفٍ في الوزارة أو لدى دوائر أمنيّة معيّنة.

◆ ◆ ◆

بعد قرابة أربعين عامًا من الحَجْر على العقول وكَبْت الحريّات، يبدو دورُ الكاتب الصحافيّ، الموظّفُ في وسائل الإعلام السوريّة، فقيرًا ومحدودًا إلى أبعد حدّ. غير أنّه يوجد بين الكتّاب عددٌ غيرُ قليل من المثقفين الحقيقيّين، الموهوبين والمبدعين.

فهل يأتي يومُ يَنْشر فيه هؤلاء تلك الكتاباتِ، التي وضعوها لأنفسهم، فيَظْهر كم كان ضارّاً بعقولنا، وبمجتمعنا، وبدولتنا، ذلك الفصامُ القاتلُ الذي فَرَضَ عليهم إكراهاتٍ امتصَّتْ نسيمَ الحرية المنعشَ من حياتهم، فشوَّهَتْها وخنقتهم؟

دمشق

ميشيل كيلو

كاتب سوريّ. تَرْجم أكثر من ثلاثين كتابًا عن الألمانيّة في اختصاصات مختلفة. رائدٌ مبادرٌ ومؤسّس في «الهيئة التأسيسيّة للجان المجتمع المدنيّ.» ومن أبرز الناشطين المؤثّرين في حقل العمل العامّ